Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 16 / العـدد 02 / سبتمبر2022 / ص ص 428 - 437

شخصية المكان وسلطة الرمز الديني في رواية "حوش النعاس" لـ: عبد القادر حميدة -مقاربة أنثروبولوجية-

The character of the place and the authority of the religious symbol in "Hosh Al-Naas" by Abdelkader Homida -An anthropological approach-

ميلود حميدة
جامعة الجلفة (الجزائر) ، m.hamida@univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/28 تاريخ القبول: 2022/09/15 تاريخ النشر: 2022/09/30

ملخص:
تمثّل الشخصية في المتن الروائي أساسا مهما في تحريك جميع العناصر التي حولها، فهي المنتج الأساسي في خلق علاقات متعددة داخل السياق الروائي، وإذا نظرنا إلى النقد التاريخي البنيوي ورؤيته إلى الشخصية بات لدينا تصورا تاريخيا لا يقف على البنيات الداخلية لمكونات الشخصية ودلالات ذلك كنسق مرتبط ببؤرة الإدراك الفاعلة فيما حولها، لذلك كان الحفر في عمق الشخصية هو الفاعل في إدراك النسق، والشخصية المكانية باعتبارها شخصية ترتبط بمن أنتجها بالدرجة الأولى وبمن فعّلها ثانيا، لذلك لها حضورها وفاعليتها مثلها مثل الشخصيات الروائية المؤثرة، وباعتبارها أيضا شخصية صانعة للحدث ومحركة للشخصيات بكل تنوعها وتعددها، وعليه فقد ارتأينا في هذه الدراسة الولوج إلى بنية شخصية المكان من خلال سلطته كفاعل له رمزية دينية داخل فضاء أنثروبولوجي يقرأ ما في الداخل قراءة تستكشف كل تلك العناصر وأدوارها المؤثرة بسائر التصورات التي يتضمنها العمل الأدبي كرؤية للعالم.
كلمات مفتاحية: أنثروبولوجيا، الرمز الديني، السلطة، حوش النعاس. شخصية المكان.

ABSTRACT:
The character in the narrative body represents an important basis in moving all the elements around it, and if the novelist character is also, then we will refer all these components to the emergence of the place character, and their presence and effectiveness, just like the influential novelists characters, as it is the maker of the event and the engine of the characters in all their diversity and multiplicity, and accordingly, we have considered in this study access to the structure of the character of the place through their authority as an actor with their religious symbolism within anthropological space that reads what is inside a reading that explores all these elements and their influential roles in all the perceptions included in the literary work as a vision of the world.
Keywords: Anthropology, Authority, Sacred, Religious, Abdelkader, Homida.

1- مقدمة:

ينطلق النص في إنتاج شخصياته تدريجيا من خلال بناء متراكم يربط بعضه بعضا، ويشكل بذلك بنية عامة تستند في تفاصيلها إلى جملة من العلامات الدالة، فالشخصية ضمن الحدث والفضاء تعتبر من أهم مراكز الحكاية التي ترسم طريقا واضحا في عملية السرد، ولذلك فللشخصية المكانية دور مهم في وضع إطار عام ومخصص في الوقت نفسه للحكاية ودلالاتها، وتكون ملازمة للشخصية البؤرية التي تقدم وجهة نظرها من خلال كل المكونات التي تحيط بها، وبالتالي فهي اندماج الشخصية المعنوية بمكوناتها الثقافية مع حضورها المادي ضمن نطاق جغرافي معين ومحدد لا تزول دلالاته بزوال الشخصية المعنوية وحضورها المادي، فإذا كان المكان حاملا للشخصية في مفهومه البسيط، فإن الشخصية المكانية مؤثرة بشكل فاعل إذا ما اتحدت ضمن

- المؤلف المرسل: ميلود حميدة

doi: 10.34118/ssj.v16i2.2534
http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj/article/view/2534
ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

فاعلية الأحداث، بحيث تبقى مستمرة بمحمولها الثقافي والتاريخي، خاصة إذا كان لها سلطة رمزية مهيمنة تجعلها تؤثر فيما حولها، بل وتقود جملة التصورات إلى مضامينها الخاصة، وتحرّك الأحداث نحو دلالاتها، «ذلك أن السلطة الرمزية هي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها» (بورديو، 2016، صفحة 48) وهذا ما يدل عليه حضور قداسة المكان في عالم التدين باعتباره دالا موثّقا وموثوقا لكل الخاضعين لسلطته، ويدلُ أيضا تفرّع هذه الدلالات على ممارسات اجتماعية موروثة تصل في قيمتها إلى المقدس، فتكون بنيتها الدالة ضمن البنية الدالة الدينية العامة لا تنفصل عنها، لكنها تختلف في عملية الممارسة الشكلية النمطية، لأنه «لا يمكن للمنظومات الرمزية باعتبارها أدوات للمعرفة والتواصل، أن تمارس سلطة وتفرض البنيات إلا لكونها تتحدد هي كذلك كبينات» (بورديو، 2016، صفحة 49)، وهنا يمكن أن نصل إلى مفهوم إعادة الإنتاج Reproduction باعتباره آلية تعيد وتكرر البنى داخل الحقل والحقل الروائي وفضائه على الخصوص، وذلك داخل نسق فكرة "الاختلاف" و"العلاقة" عند كلود ليفي ستراوس Claud Levi-Strauss بحيث تتحد هذه العناصر وتؤدي «إلى ظهور تضادات وتناقضات تسهم في إعطاء العالم الاجتماعي دينامية (حيوية)» (جون، 2008، صفحة 157) لذلك حاولنا في دراستنا تتبع كل هذه البنيات من خلال فضائها المكاني باعتباره شخصية روائية مؤثرة يقوم عليها العمل الروائي الذي تكون فيه كل الشخصيات الاعتيادية مجرد شخصيات ثانوية لشخصية المكان، وذلك من خلال مقاربة أنثروبولوجية تحفر في كل الوظائف البنيوية للمكان كشخصية بؤرية فاعلة، ومن هنا نتساءل هل حققت الشخصية المكانية دلالالتها في العمل الروائي؟ وهل دلت على قدرتها التواصلية المنتجة داخل نسقها الطقوسي التقليدي؟

وعليه فقد كانت أهداف البحث ومنهجيته كالتالي:

يرتكز هذا البحث على جملة من الأهداف نذكر منها:

- محاولة قراءة النص من خلال قراءة العناصر الثقافية المختلفة الواردة في الرواية
- مقارنة العناصر الثقافية بمختلف تنوعها الدلالي
- بناء تصور نقدي فاعل للشخصية المكانية من خلال مفهوم السلطة الرمزية أنثربولوجيا
- مقاربة الوظائف البنيوية داخل الشخصية المكانية في عملية الإبداع الأدبي
- قراءة القدرة التواصلية المنتجة من خلال النسق الطقوسي التقليدي في الرواية.

أما منهجية البحث فقد اعتمدت الدراسة على قراءة الشخصية والفضاء المكاني في الرواية من جهة، ثم شخصية المكان وسلطة المقدس الديني من جهة أخرى.

2- الشخصية والفضاء المكاني/ شخصية المكان في رواية "حوش النعاس"

يعتبر الروائي الدكتور عبد القادر حميدة من المهتمين أنثروبولوجيا بالمكان من خلال أعماله الروائية، بداية بروايته "الحكاية الحزينة لماريا ماجدالينا" التي ركز فيها كثيرا على حضور شخصية المكان بكل تمظهراته، كما نجده أيضا في روايته "حوش النعاس" قد عمل فيها على توفير قدرة كبيرة لعملية التواصل المكانية، بل وتعددت فيها مستويات اللغة فكأنها «لغة تقوض السائد وتمتهن القواميس وتستنفر إمكانياتها المختبئة، متحولة إلى لغة متعددة الأطياف ومتنوعة الأقمطة، يعلن كل قماط عن وجه لها لا يرقد في القماط الآخر». (دراج، 1999، صفحة 259)

2-1- عتبة العنوان/ متعة الدخول:

يقدم العنوان دلالة مهمة للدخول إلى الفضاء الروائي، فهو العتبة الأولى التي نعبر منها إلى الداخل، وأحيانا يكون هو البنية الدالة Structure significative التي ترتكز على بعد شمولي للبنية الواسعة التي تشكل العمل الأدبي وتشكل أيضا الوعي الجماعي

للفئة الاجتماعية، وعلى هذا الأساس تكون البنية الدالة شاملة ومتوغلة في أجزاء العمل الأدبي، تعمل على وضع تلك الأجزاء في البعد الكلي، ولعل جملة "حوش النعاش" تستند على بعدين مهمين أساسيين، الأول يأتي في دلالة لفظة "حوش" وهي كلمة تعني "فناء الدار" وهي مستعملة بشكل كبير في اللغة المحلية لأهل المدينة (مدينة الجلفة على الخصوص) وتعني أيضا "الدار" بكل تفاصيلها، أما البعد الثاني فيتمثل في كلمة "النعاس"، ولها دلالات متعددة، ليس في كونها اسما فقط، بل في دلالة الاستعمال نفسها، فالنعاس اسم شائع في المدينة، ينتقل من مكان إلى مكان، ومن فضاء إلى فضاء ومن شخصية إلى أخرى، من العامة إلى الخاصة، ومن الخاصة إلى العامة، إنه "مُستَنَد" هوية تقليدية تقف على التبرّك بهذا الاسم، ومن المؤكد في سياق النص الروائي أنه اسم الولي الصالح الشيخ "عبدالرحمن النعاس بن إبراهيم بورقبة (1905- 1993)، ولعل دلالة الجملة تأتي في سياق كلمة "الدار" فهي المكان الذي حمل الأحداثَ وتحدّث عنها وعن وقائعها، ولم يخل الشعر العربي القديم في ذكر الأطلال من حديثه عن الدار وعن ساكنيها، لذلك فلها دلالات مؤثرة وعميقة جدا. ومن هنا تأتي البنية الدالة لعتبة العنوان في فتح فضاء كبير لهذه الشخصية المكانية، فحوش النعاس هو الفضاء الفعلي والفاعل في تحولات الأحداث، وهو المكان الذي يتحدث عن تجربة رائدة في عالم الصوفية، حيث كان للشيخ عبد الرحمن النعاس كراماته التي يتداولها الناس داخل وخارج حيز المكان، ذلك المكان الذي هو منزل الشيخ الذي يقصده أهالي المدينة، ويقصده حتى من خارجها من المدن الجزائرية، وهو عبارة عن بيت يقع في المدخل الشرقي من مدينة الجلفة طريق بوسعادة أو كما كان يطلق عليه (باب بوسعادة)، وهو تجمع سكني لبيتين أو ثلاثة متلاصقة مبني بطريقة قديمة (بالحجر) يتضمن طابقا أرضي واحد وسقفه مصنوع من (القرميد) يسكنه اليوم بعض أقرباء الشيخ، لأن الشيخ لم يخلف إلا فتاة واحدة هي (عائشة)، حيث تحوّل هذا المكان بعد رحيل الشيخ إلى مزارا يومي للمريدين والمحبين والراغبين في الاستشفاء وقضاء الحوائج، إلا أن أهم غرفة في هذا البيت هو غرفة الشيخ وهي المزار الأساسي ، حيث قال عنها حسبما روى البعض (هذي الجنة واللي تنفس فيها والله ما يخاف)، أي أن غرفته تلك هي بمثابة جنة تتحقق فيها الأحلام والرغبات ومن دخلها فهو آمن من كل خوف، وهذا ما تشير إليه الدلالة البنيوية في العبارة حينما تكون أصواتا لها أثرها المقدس، فبنية الصوت تتفاعل في إنتاج صورة متداولة بحيث تعتبر كيانا فيزيائيا مستقلا يحقق حضور شخصية المكان بالدلالة عليه وعلى قائله، حين تفرض اللغة على الصوت مقاييسها الثنائية، أي أن اللغة كما رأى جاكبسون Roman Jakobson تفرض على الصوت «مقياسا ثنائيا وهو مجرد نتيجة ناجمة عن الدور التفاضلي المحض الذي تلعبه الفونيمات» (جون، 2008، صفحة 145)، لذلك كانت اللغة في هذا البعد الدلالي لها تضاداتها الفينومية التي تمزج بين الصوت والمكان، وإذا كانت «البنية اللغوية تظهر لنا على، المستوى الخارجي، كأداة تواصل بين الأفراد» (Jean, 1961, p. 09)، فإنها، على المستوى الداخلي، تنتج أيضا لغات عميقة تمارسها الفئات الاجتماعية داخل المجتمع العام، بحيث تنفصل المجتمعات كانقسام خلوي من الداخل لتنتج كل لغة داخل اللغة مجتمعها الخاص، وهذا ما نجده مثلا داخل فضاءات المجتمع الصوفي (الطرقي) بوجهه الشعبوي التقليدي.

2-2- الشخصيات الروائية والمكان:

تحفل رواية "حوش النعاس" بالعديد من العناصر الثقافية التي أنتجت نصا زاخرا بموروث ثقافي متعدد الدلالات، ولعله كما رأينا في عتبة العنوان يتجلى المكان كفضاء لا يحتوي الأحداث بل هو يصنعها ويشكلها ويحدث الأثر فيها، ففي البداية اشتغل الكاتب تقنياً على حركات معينة، لكل حركة دلالتها الخاصة، ولكل حركة مدخل نثري يتضمن دلالة معينة، وسنقوم بقراءة كل حركة مع عناصرها الثقافية.

- الحركة الأولى: ابتدأها بمقولة لابن عربي "المكان إذا لم يؤنث لا يعول عليه"، يفسر شخصية المكان المؤنثة حين تدخله امرأة، «هي لم تحمل شيئا معها من منزلها وهي تفر صباحا، بعد أن ضربت الرجل الضخم على رأسه بحجرة تيمم، تلك الحجرة التي

استقدمتها من زاوية الولي الصالح محمد بن أبي القاسم الهاملي» (حميدة ع.، 2020، الصفحات 7-8)، هكذا كانت البداية في الدخول إلى عالم تلك المرأة وإلى عالم ذلك الرجل الذي أنقذها من الضياع وتزوجها، ودلالة "الحجرة" التي حملتها معها للتبرك هي دلالة تقديس للمكان، وفي دلالات هذه الحركة تعدد كبير للعناصر، منها:

أ- المقهى: "مقهى الأنوار" كمكان شعبي تلتقي فيه فئات متعددة من الشخصيات بكل تنوعها، خاصة هذا النوع من المقاهي الشعبية التي يرتادها خلافا للناس البسطاء الدراويش والزهدية، تتضمن أيضا في مشروباتها خصوصيات معينة، كشرب الشاي، والحار، والقهوة «الصفاي» التي تحضر بطريقة تقليدية، والزعتر، والزنجبيل، والفرارة التي تعد أيضا بطريقة تقليدية بحيث لا يصفها بُنّها الذي يبقى داخل الفنجان، وغيرهم من المشروبات، «كان مقهى الأنوار واسعا، مربع الشكل، يسع ما يقارب العشرين طاولة، إلى جانب كل واحدة منها كرسيين». (حميدة ع.، 2020، صفحة 14)

ب- المجذوب: وليس المجنون باعتبار أن المجذوب جُذبَ من عالم المحسوسات المرئي إلى عالم العلامات والإشارات والرتب "العسكرية الصوفية"، «كان هو دائم التردد على الشيخ عطية، المجذوب المنقطع عن الناس، المستوطن لربوة خلف حي عين اسرار، وكان الشيخ عطية مثله مثل بقية المجاذيب عموما، لا يتحدث صراحة، بل بألغاز لا يفهمها إلا من فتح الله عليه، يطلقون على هذه الألغاز في هذه المدينة تسمية "النحو"». (حميدة ع.، 2020، الصفحات 8-9) وشخصية المكان في مقابل شخصية المجذوب تتمثل في البيت الذي يرتاده والربوة التي يقطنها، ففي الرواية كما أسلفنا يستوطن المجذوب ربوة خلف حي عين اسرار، تلك التي أضحت تمثل مكانا مهما لدى المريدين.

ج- النحو، أو الحديث بالإشارة، وهو عنصر ثقافي يدل على أنه لا يجب أن تأخذ الكلام على ظاهره بل عليك تفسيره من خلال دلالات وقرائن أخرى. كأن يقول لك الشيخ الزهدي "اشتر السردين"، وهو لا يقصد أن تذهب إلى السوق وتشتري السمك، بل يقصد أن "السرَّ دَينٌ"، فامسك لسانك يصلح حالك. وتظهر شخصية المكان من خلال الأمكنة التي يحيل عليها هذا النحو.

- الحركة الثانية: ابتدأها بمقوله لابن عربي «النوم إذا لم يعط بشرى لا يعوّل عليه»، والكثير كانوا يعتادون الذهاب إلى الأضرحة وقبب الصالحين من أجل النوم والرؤية، لأن ذلك المكان له خصوصيته في تغيير مجريات الطامح إلى التغيير، والباحث عن الشفاء، والهارب من أذى الناس. وهنا تظهر شخصية المكان من خلال الذهاب إلى قبب الصالحين والنوم هناك، كي تؤثر شخصية المكان على المستغيث فتأتي الرؤيا وتأتي إشاراتها ودلالاتها، كذلك حصول عادة الرؤية حين تتجدد مرة أخرى، لترتبط بعالم التفسير، فهل لها مؤشرات في الواقع؟ «ربما هي تحذره من شيء ما مثلما حدث أن حذره الدرويش السعدي ذات ليلة ليست بالبعيدة» (حميدة ع.، 2020، صفحة 35)، وهنا تركز هذه الحركة على خصوصية الرؤيا والمنام في علاقتها بذلك المجتمع الذي يؤمن بعلاقة الرؤيا بالواقع، ويؤمن بأن تأويلها سر من الأسرار الإلهية، يأتي منحة من الله عن طريق شيخ في تلك الرؤيا، «يقال إن "سي بلقاسم" ورث سر تأويل الرؤيا عن جده الحسن الذي كان ينحدر –حسب البعض- من سلالة "ابن سيرين"» (حميدة ع.، 2020، صفحة 36). كما أن أثر شخصية المكان في الأجواء التي يبعثها، لتزيد فيه تلك الرهبة، وتلك الخصوصية، فالرؤيا هنا تجسيد لخبر القادم من الأيام، وقراءة لما مضى من الأفعال والأقول، وتنبيه لحضور دور الإله دائما مع الإنسان، هكذا هو اعتقاد أهل تلك القرى والمدائن، وهنا نذكر بعض الشخصيات التي وظفها الكاتب في روايته وكان لها حضورها الحقيقي في واقع المدينة/المكان الصوفي:

أ- السعدي: وهي شخصية لها أثرها في واقع ذلك المجتمع، رجل خمسيني ربما تلوح منه ملامح الطيبة، يعتبر من أهم الدراويش التي تجوب المدينة ولها أثر داخل ذلك المجتمع، يتحدث بـ"النحو" وله أفعاله التي يتداولها الناس فيما بينهم.

ب- سي احمد لمين: شخصية كان لها الحضور الفعلي في حياة من عايشوا وقائعه، يقال إنه كان يغيّر الخمر فتصبح حليبا، كان من الشخصيات المادحة كمنشد ديني يحفظ الكثير من قصائد الشعر الشعبي وينشدها رفقة مجموعة من الشخصيات يتبعونه حيثما حل وأقام.

ج- العسالي: وهو من الدراويش أيضا، «يضع حول رقبته سلسلة ذهبية واسط عقدها "قلب" وينادونه في المدينة بالعسالي، كانت تلك السلسلة ملكا لزوجته، التي جذب هو على إثر وفاتها» (حميدة ع.، 2020، صفحة 41).

د- مياسة: وهي من المجاذيب التي لها أثر أيضا وحضور قوي، كانت قد ارتادت إحدى الخلوات الصالحة، «"خلوة سي النعمي" وأمروها بأن تداوي بهما الأمراض المستعصية من هؤلاء، إنهم "ناس الخفاء"، "ناس الخير"، "ذوك الناس"، "الرواحين" الذين هم جنّ طيبون أو ملائكة أرضيون، هكذا يسميهم ويصفهم القوم». (حميدة ع.، 2020، صفحة 41)

هـ- سي النعمي: ولي من الأولياء، وصاحب كرامات متعددة، هو الجد الثالث أو الرابع للكاتب، كان من حفظة القرآن الكريم، ومن عاداته الاختلاء في غار يسمى "الخلوة"، وكان يزوره القوم للدعاء والبركة، ترك خلوته "شخصية مكانية" لها قيمتها بين الناس إلى اليوم، ويقصدها كل متعب أو مريض أو مهموم للتبرك بها. حيث يعتبر من قبيلة عُرف عنها تدريس القرآن بين الأقوام والقبائل الأخرى، وهي قبيلة "سيدي ناجي"، توزعت قبيها وزواياها بين الجزائر والمغرب وتونس.

و- أم السعد: «كانوا يلصقون لها كفيها ولا أحد يستطيع تفريقهما، إلا رجلا تحدده هي حينما تغيب في الحال، وكانت في حالها ذاك تشرب كلما يعن لها و لا تتأذى، تشرب العطر الأخضر وعطر الزواي، تدخن الثلاث والأربع سجائر دفعة واحدة وأحيانا تضع تلك الجمرات الملتهبة على لسانها ولا يحدث لها شيء، والعجيب –كما يروي القوم عنها- أنها كانت تلحس السماء الماطرة بلسانها فيتوقف المطر». (حميدة ع.، 2020، صفحة 42)، وتسقط في الحال هي دلالة على وصولها لحالة السكر المعنوي وهي ترقص على أنغام "البندير والقصبة".

ز- عمر بوجملين: وهو أيضا شخصية من المجاذيب لها مكانتها في ذلك المجتمع، يتحدث بالنحو أحيانا، وبوضوح أحيانا أخرى، له وقائع متعددة مع العديد من محبيه، كان يجلس أغلب الأحيان في المقاهي الشعبية. وهنا تتأثر الشخصية الرئيسية بما يفعله هذا الزهدي وبما ينصحه به من أقوال وأفعال.

ح- سيدي عبد الحفيظ الخنقي: شخصية لها واقعها الديني الفعلي في الحياة الصوفية، وهو أحد أئمة الأولياء والأتقياء العارف بالله الشيخ سيدي عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الونجلي الهجرسي الإيدريسي الحسني الخنقي (1789-1850).

ونذكر أيضا المجلوب دراماتو، وعمر العيفاوي، والشيخ لخضر مولى الشمة، والشيخ عطية مولى العرقوب، و الشيخ النعاس، والخونية السعدية، والخوني العلاء.

- الحركة الثالثة: وابتدأها بمقولة لابن عربي « كل شوق يسكن باللقاء لا يعول عليه »، وتركز هذه الحركة على تفاصيل شخصية المكان، هذه الشخصية التي تقوم من جمادها لكي تتكلم، وتؤثر فيما حولها، وتخلق هي بنفسها الأحداث، فشخصية المكان هنا هي "حوش النعاس"، فالنعاس قد غاب وتجسدت ملامحه على جدران ذلك البيت، «هي الأبواب تشبه ساكنيها، ولا مكان للتأويل في "حوش النعاس"، فهذا المنزل لم يكن سطراً فرّ من حكاية صوفية وحسب، بل هو الحكاية نفسها والأسطورة، هو البداية والنهاية، هو عالم أرضي يناجي السماء نهار، ويتدثر بالنجوم ليلاً، هناك سمع "هو" لأول مرّة من يحكي عن "سي بضياف" ونبوءاته، عن "سي عيسى مولى الجبل الأزرق"» (حميدة ع.، 2020، صفحة 75)، ويتحوّل عالم الحكاية في مفهومه السردي إلى الحكاية ذاتها، وتكون الأمكنة الجامدة شخصيات متحركة، يؤدي لها المريدين كل الخضوع والولاء، فذلك البيت لم يكن بيتا عاديا، حتى أن هناك الكثير ممن يطأون ساحة المكان ينزلون من سياراتهم وهم حفاة احتراما للمكان الذي مشى فيه الشيخ، «مثلما كان يفعل تماما

بعض كبار المريدين ممن لهم مكانة عالية عند الشيخ وفي نفوس الناس كالإمام سي الطيب طاهيري، والحاج الماحي، وذلك المثقف الذي جاء من تلمسان، والذي أخبر المريدين حينها بأنهم لو عرفوا قيمة هذا الشيخ، لمشوا في ساحته حفاة احتراما له». (حميدة ع.، 2020، صفحة 68)

3- شخصية المكان وسلطة المقدس الديني

تحيل تلك التراكمات الثقافية للمدينة بكل تمظهراتها على البعد الديني الذي ظل مرتبطا بكل خصوصياتها منذ زمن بعيد، فالمدينة كمكان يجمع كل الثقافة المتوارثة من جهة والقادمة إليها من جهة أخرى هي تعبير مهم عن شخصية أفرادها، باعتبارها ممثلا لشخصية المكان، وبذلك ارتبط البعد الديني كبنية دالة بجميع التمثلات الثقافية، ورواية "حوش النعاس" تمثيل أيضا لحضور شخصية المكان الدينية في صورتها المقدسة، سواء كان المعطى الديني التشريعي أو المعطيات "التدينية" الثقافية التقليدية المتوارثة، بحيث تحيل جميعها إلى سلطة الغيب التي تحاول تفسير الظواهر الغامضة بتجسيدها تجسيدا متعدد الأوجوه، خاصة التجسيد المكاني. وهنا تظهر أهمية المكان كسلطة غيبية دينية يلجأ إليها لتفسير كل غموض يهدد الفرد والجماعة، ولعل رواية "حوش النعاس" تجسيد فعلي لسلطة المقدس الديني المتثل في السلطة الرمزية للشيخ والإمام والمجذوب والدرويش والأماكن التي حملت رمزيتهم فأضحت هي ذاتها رمزا.

3-1- منتج السلطة الرمزية لشخصية المكان كآليات هيمنة:

تتوحد البنية الرمزية لحضور السلطة الدينية من خلال الممثلين الفاعلين في عملية الإنتاج، فهي لا تختلف في بنيتها رغم تعدد الأمكنة والأزمنة والثقافات، ورغم تعدد الاتجاهات الفكرية الدينية، إلا أن تلك البنية تظل حاكمة ومستمرة في بلورة تمثلاتها عبر مختلف الأجيال، وفي إنتاج دلالاتها عبر مختلف الشخصيات التي تمثلها، سواء كانت شخصيات واعية أو شخصيات جامدة، ولعل أهم عنصر يمكن الحديث عنه هو آليات إنتاج السلطة الرمزية داخل هذا الفضاء المتنوع والثري، باعتبارها «سلطة بناء الواقع وهي تسعى لإقامة نظام معرفي». (بورديو، 2016، صفحة 48)

ومن هنا فسلطة هذا الرمز تكون لها هيمنة قوية في تسيير العقلية السائدة لتلك الفئة الاجتماعية، بما تمليه من طقوس مادية ومعنوية، وهي في رواية "حوش النعاس" تتمثل في الحوش/ الدار نفسها، وفي المدينة نفسها التي تتسم باسمه، فحوش النعاس هو المكان الذي كان يقطنه الشيخ عبد الرحمن النعاس صاحب الكرامات الربانية التي تشهد بها تلك الفئة الاجتماعية التي عايشت ذلك الزمان وذلك المكان.

وعليه يمكن لنا أن نقف على ثلاث آليات مهمة من آليات الهيمنة، حيث ينطلق حضورها من خلال تفاعل زمني معين تبدعه الفئة الاجتماعية بالتلقي وأحيانا بدون وعي نقدي:

- سوسيولوجيا الرهبة

إن اللجوء إلى فضاء الشيخ، هو لجوء اجتماعي يزرع في شخصية الفرد بعدا روحيا يجعله يبحث عن أمن معين هروبا من ظروف نفسية واجتماعية وجسدية معينة، ومن ذلك الخوف والهروب، يقع الفرد في دائرة الرهبة التي يصطبغ بها فضاء الصالحين، هذا الفضاء الذي تجسده فعليا شخصية المكان، بما فيها من أبعاد جغرافية وتفاصيل تدل عيه، فالمكان يبعث بالرهبة، والرهبة تؤدي إلى الخضوع. «عندما وصل المكان نزل من السيارة حافيا احتراما لتلك الساحة التي وطأتها أقدام الشيخ، مثلما كان يفعل تماما بعض كبار المريدين ممن لهم مكانة عالية عند الشيخ وفي نفوس الناس» (حميدة ع.، 2020، صفحة 68). وعليه تقيد تلك الرهبة سلوكات الأفراد وتمنعهم من اتخاذ قرارات في حياتهم إلا إذا لجأوا إلى الشيخ إذا كان موجودا، وإذا لم يكن موجودا، فإنه يستشير ويتبرك بالمكان، سواء كان الضريح أو القبة أو البيت الذي سكنه الشيخ، وكل ذلك يدل على تلك الهيمنة.

ولعل الرمز الديني يمكن له أن يتكيف في أوساط معينة ويخرج تماما عن أصله التشريعي ليكون له الحضور الأكثر اتساع مما مضى خاصة داخل المجتمعات المغلقة التي تحتوي على قابلية للتمتع بكل ذلك الحضور للرمز الديني، حيث يتحول ذلك الرمز ليشق طريقا موازيا لأصله متسما بمكانته داخل سلوكات معنوية ومادية بحيث تكون تلك الممارسات خارجة من رحم الأصل ومتشكلة بهالة لا تشبهه تماما، باعتباره اشتقاق من العالم الروحي يتسم بكل المدلولات الثقافية والتاريخية ومن ثم تظهر شخصية المكان كموروث ديني وتتعدد بتعدد الانحرافات التي تستغلها هذه الشخصية وتحيد عن حضورها المقدّس الأصيل الذي تأسست عليه وتنوعت بدلالاتها كرمز ديني داخل كل تجربة للفرد المريد؛ أي أن الأفراد الذين ينتمون لهذه الدائرة هم بطبيعة الحال لديهم قابلية الإيمان بمحتواها، حيث تأسست تلك القابلية بشكل اجتماعي طبيعي، وجاءت أحيانا كثيرة من مناطق الأسطورة والخيال الاجتماعيين والخوف والرهبة، لذلك كان تراكم ذلك المخيال مؤثرا بشكل كبير في تنامي هذه القابلية، باعتبار أن «الواقعية والرمزية والخيالية متشابكة وأن الأساطير تتشكل من التجارب الاجتماعية لمن ينتجها»(Béhagle, 2016)

- سوسيولوجيا التقديس

يحقق المريدون دورا بالغ الأهمية في إضفاء التقديس على المكان، فهم الألية التي تحفر بها السلطة الرمزية حدودها وتوسع بذلك آفاقها، وتشكل الأساس الفعلي لرأس المال الرمزي، وذلك من خلال إظهار شخصية الخضوع بين الوافدين، وزرع هذا المنطق بشتى الطرق للمحافظ عليه، ونجد أن الحكاية في حد ذاتها معطى سوسيولوجي فاعل بين الأفراد المتلقين، بحيث يكون لديهم تلك القابلية التي أصبغها عليهم الخوف والرهبة. تلك القابلية لتبني هذا الفضاء واتباعه حتى بدون وعي نقدي، «تنهدت الأم مطمئنة، وتنهد الأب محتارا، الأطباء في شرق الوطن وغربه، وفي التل، عجزوا عن مداواته، والشيخ يقول كلمة واحدة تفيد بأنها ستشفى في لحظات، هذا هو العجب، ثم ركّز عما سيفعله الشيخ أو يقوله ويأمر به، وفعلا ما هي إلا لحظات، حيث جذب الشيخ أنفاسا من غليونه، ثم سلّمه للطفلة "هبوجة" قائلا: اجذبي أنفاسا منه، وقومي إلى المهام التي تنتظرك، لقد اعطيتك الحكم، وكلمة الحكم تعني "السلطة"، فلم يفهم القوم لحظتها، لكن الطفلة قامت ماشية بعد بضعة أنفاس جذبتها من غليون الشيخ» (حميدة ع.، 2020، صفحة 73). وتشير هذه الحادثة وحوادث مشابهة إلى تلك السلطة التي منحها الله لسيدنا عيسى عليه السلام، حين منحه الله تلك القدرة الفاعلة بين الناس، فكان يمنح الشفاء لكل مريض، ورأى الناس بأعينهم ما فعله من أفعال، ومن كان عليه من خصال، بحيث شهدت له الجموع من مختلف الأقطار والأمصار، «وكانَ يتنقّل في منطقة الجليل كلّها، يُعلّمُ في مجامعِ اليهودِ، وينادي ببشَارةِ الملكُوت، ويُشفي كلّ مرضٍ وعلّةٍ في الشعب، فذاع صيتُهُ في سوريّة كلها. فحملَ إليه النّاس مرضاهم المُعانينَ من الأَمراضِ والأوجاع، على اختلافها، والمسكونينَ بالشياطينِ، والمصروعينَ، والمَشلُولينَ، فشَفَاهم جميعاً، فَتبعتْهُ جُموعٌ كبيرة من مناطق الجليلِ، والمدنِ العشرِ، وأورُشَليمَ، واليهوديّة، وما وراءَ الأردن» (متى، د ت، صفحة 05)

- سوسيولوجيا التفاعل الرمزي بين الرهبة والتقديس

كما يحقق المريدون والتابعون لهذا الفضاء جملة المعطيات التي تقود أساسا إلى تفعيل دور الرهبة والتقديس من خلال الحكايات أولا باعتبارها الموروث اللفظي الحقيقي في هذا الفضاء، ثم بأعمال موازية متعددة لها أثرها في التواصل والاستمرارية، مثل توسيع وترميم الأبنية والقبب، ودعم الولائم المختلفة والمتعددة في سياق المحافظة على الموروث، ومساعدة الفقراء والمساكين، واستمرار طقوس قراءة القرآن والأوراد بشكل منظم ودوري، وتمكين الزائرين من تقديم الذبائح وتوزيعها وإقامة الاحتفالات الدينية، «وهكذا مشى هو باتجاه باب الحوش، في حين انشغل "السعيد" رفقة "العيد الذباح" وبعض المريدين الشباب بإنزال الكبشين من السيارة مع بقية حاجيات إعداد الكسكسي والمرق بالحمص والبطاطا، وبعض الخضر الأخرى» (حميدة ع.، 2020، صفحة 68). وهنا يساهم فعل التقديس من ثبات هذه البنية داخل المجتمع.

إنّ ما تقوم عليه "السلطة الرمزية الدينية" في الإسلام يحيل إلى تعدد الحمولات الثقافية والتاريخية ووقائع ودلالات الرمزية الاجتماعية التي تستند على مستويات متعددة لحضور فاعلية الأبعاد الغيبية من خلال بنية العوالم الرمزية القائمة التي تصنع ذلك الفضاء بكل حدوده وتفاصيله، بل وتأتي إلى خلق علاقات متعددة بين الفرد داخل مجتمعه الديني ومحيطه بكل تنوعه من أشياء مادية أو معنوية وما يصدر عنه من أفعال تؤكد ذلك السلوك داخل حيز موضوعي ومكاني. فهناك رمزية بارزة تحرّك أفعاله وسلوكاته وحركاته التي تحتوي في موضوعها كل ما هو مقدس وما هو تقليدي وما هو عرفي يصيغها ما هو ديني لفئة اجتماعية بحيث تقيّد الفرد وتوجهه بوعي أو بدون وعي.

إن التفاعل بين الرهبة والخوف والتقديس، تختلق كلها آليات موازية تعمل على استمرار رأس المال الرمزي، ذلك الذي يتمظهر في تلك السلطة المهيمنة بشكل خفي على الأفراد المريدين الذين يقصدون المكان بإرادتهم الخالصة.

3-2- حدود السلطة الرمزية من خلال شخصية المكان:

إن التجسيد الفعلي لخصوصية شخصية صاحبة السلطة في الرواية تتمثل أساسا فيما ترتب من أحداث ووقائع كانت مرافقة للشيخ عبد الرحمن النعاس بن ابراهيم، فهو الولي الصالح الذي كان يقصده الناس للتبرك به وبكراماته التي عرفها الصغير والكبير في ذلك المكان، فصار المكان شاهدا على كل تلك الوقائع والأحداث، فالشيخ النعاس قد حمل اسم الشيخ الصوفي "عبد الرحمن النعاس بن سليمان"، ويعتبر هذا الشيخ أول من حاز هذه الصفة "النعاس"، لأنه كان ينعس كثيرا، لذلك سماهُ شيخه المختار "النعاس"، حيث لم تكن هذه الصفة مجرد صفة عابرة، بل كانت صفة رأى فيها الشيخ أسرارا كثيرة سيتميز بها حاملها لاحقا، وبالفعل حقق كرامات متعددة ذكرها الكثير من مريديه ومحبيه والباحثين في المجال الصوفي، أما الشيخ النعاس الثاني فقد حقق هو أيضا كرامات كثيرة لا تحصى، وله مكانة عظيمة في مدينة الجلفة، لدرجة أن ثيابه حين يبدلها تقسم على مجموعة من المريدين قطعة قطعة، وكل قطعة أقل من المنديل الصغير في حجمها، «ولم يكن الشيخ النعاس يغير ثيابه إلا مرة كل عام، ويسمى ذلك اليوم بيوم العيد، حيث كانت تجلب له كسوة جديدة» (حميدة ع.، 2020، صفحة 52).

وتتمثل صفات هذه الشخصية بالهدوء والسكينة، حيث «اعتاد الشيخ أن يضع برنوسا بنيا على كتفيه فوق قندورته الرمادية، ويلف حول رأسه عمامة صفراء، ويتخذ لقدميه حذاء قطنيا خفيفا، فوق جوارب خشنة نوعا ما، وكان وجه الشيخ دائريا، بعينين بنيتين غائرتين قليلا، وبأنف يميل إلى الحدة والطول، أما لحيته فقد كانت سوداء كثة تتخللها بضعة شيبات في حين كان جسمه يميل إلى النحافة، وكانت ابتسامته الصافية لا تكاد تفارق شفتيه» (حميدة ع.، 2020، صفحة 52).

ولقد تعددت حكايات أسباب جذبه، بين ما هو واقعي وما هو خيالي، وما هو مجرد أساطير من محبيه ومريديه، فالمريد «ملازم للشيخ، الملتزم بطاعته وصحبته» (حميدة ع.، 2020، صفحة 392)، والأغلب كما ذكر صاحب الرواية أن حكايته حكاية حرمانه من حبيبته، لذلك هام مبتعدا عن الجميع وساح في كل مكان يبحث عن أفق آخر بعيدا هؤلاء الذين لا يحملون فهما جوهريا لحقيقة الحب، إلى أن سكن تحت جسر يقابل مقاما معروفا، هذا المقام الذي يقال إنه مملوك لملكة جن، يدعى بين الناس بـ"الزريقة"، وهناك تجسدت داخله معالم البعد الروحي، وسكنته خفقات قلوب أخرى، واستنشقت رئتاه نسيما آخر لا ندري كيف كان ولا كيف يكون، ولم يدخل المدينة حتى أذن له بالدخول، ولم يعد إلى بيته الشرقي في المدينة إلا بعد زمن معين، لتنبني هناك خصوصية هذا المكان وتظهر علامات شخصيته خاصة بعد وفاة الشيخ، حيث سكنته الخونية "السعدية" وأحيت داخله روحية ذلك المكان، فتجدد أنفاس المريدين في كل قدوم إلى مقام الشيخ، ولم تلتحق السعدية بهذا المقام إلا بعد رؤية رأتها، حيث أمرها الشيخ بأن «تترك عملها في مستشفى المدينة، وتذهب لحوشه تفتحه من جديد في وجوه الزوار، فهو ما يزال هناك بروحه –كما

قال لها- وبالذات على سريره، داخل غرفته حيث توجد تلك الحفرة الصغيرة التي أثناء حياته أمر مريديه بأن لا يتوقفوا على سقيها بالماء» (حميدة ع.، 2020، صفحة 52).

لقد أبدع الكاتب في وصف المكان بشكل يحيل إلى امتهانه للغة نقدية واضحة، فكأن الكاتب يقوم بتوصيف نقدي قائم على دراية واضحة بمختلف التقنيات النقدية والروائية معا، فقد أقام تقنيته في الكتابة على مستوى الحركات، ولكل حركة وقائع معينة، بحيث قسمها إلى عدد من الفصول، وقد ركز تماما على حركة مكانية تقرأ كل ما يحيط بموضوعه الرئيسي، «دالا على معطياته الجوهرية التي نتج عنها» (ميلود، 2016، صفحة 226)، لذلك نجدها «هي الأبواب تشبه ساكنيها، ولا مكان للتأويل في "حوش النعاس"، فهذا المنزل لم يكن سطرا فرّ من حكاية صوفية وحسب، بل هو الحكاية نفسها والأسطورة، هو البداية والنهاية هو عالم أرضي يناجي السماء نهارا، ويتدثر بالنجوم ليلا» (حميدة ع.، 2020، صفحة 52)، ولعل كلمة "التأويل" في هذه الفقرة لا تحيل مباشرة إلى فلسفة التأويل، بل تحيل إلى أنه لا مجال لقراءة المكان خارج نطاق المكان، ولا مجال لاستبدال هذه اللغة الصوفية بلغة تختلف عن لغتها الخاصة، فلا بد أن يكون التأويل داخل التأويل ذاته، النظر من الداخل إلى الداخل.

إن دلالة شخصية المكان تظهر بشكل أقوى حين مغادرة الشخصية المعنوية المؤسسة لذلك الفضاء، فيكون دور المريدين والتابعين والمحبين وحتى المرتزقة فاعلا في --تأسيس فضاء جديد على بنية الفضاء الأول المؤسس، ولا يستطيع المريد مواصلة المشوار إلا بوجود فاعل رئيسي وهو المكان، وهنا تختلق الحكايات وتضاف لها الكثير من الأحداث والحجج والوقائع، لتكون أكثر فاعلية في طلب مريدين آخرين، لتتوسع دائرة تلك الحكاية الأولى إلى حكايات متوالدة متجددة من جيل إلى جيل، وتبقى تلك "الحفرة" التي لا بد من سقيها بالماء دلالة واضحة على استمرارية حضور شخصية المكان في كل زمن وحين.

ومن هنا فدلالة السلطة الرمزية ظاهرة في حدود ذلك المكان، وداخل فضاء الشخصيات المريدة التي لا يمكن لها أن تتخلى عن تلك الجمالية التي تراها في ذلك المكان، وهو الذي حقق فعلا في نظر المريدين كرامات دللت عليها الحكايات الطويلة التي تحكيها الألسنة في كل لقاء، ومن ثم فقد أخذت السلطة الرمزية مكانتها في هذا المجال من بنية السلطة الدينية في الإسلام، باعتباره يقوم أساسا على الإيمان بالغيب، لتتحوّل هذه الفكرة وتنتقل إلى مجالات مختلفة، وتأصيلها يكمن في أن هناك رجالا صالحين منحهم الله قدرة عجيبة وخصهم بأفعال معينة بل وقربهم إليه، كما ورد في كتاب الله تعالى عن قصة الخضر عليه السلام، تلك القصة التي قدمت نموذجا صارخا لأفعال خصه الله بها تفوق قدرة النبي موسى. لتكون القصة بكل تحولاتها بنية أساسية في مستندات الفضاء الصوفي.

4- خاتمة:

تعتبر رواية "حوش النعاس" من أهم الروايات في الجزائر التي جمعت بين المكان ودلالاته المتعددة داخل أبعاد دينية صوفية، مثلها مثل روايته الأولى "الحكاية الحزينة لماريا ماغدالينا"، التي نطقت بالمكان وجسدت عبر مختلف شخصياتها خصوصياته، كما أن دلالة السلطة الدينية ظاهرة بشكل قوي في رواية "حوش النعاس"، هذه السلطة التي هيمنت على فئة اجتماعية معينة، بنيتها واحدة وقراءاتها مختلفة، تستمر في الظهور من جيل إلى آخر ومن مكان إلى آخر ومن دين إلى دين أيضا، و"حوش النعاس" قراءة أنثروبولوجية حقيقية للمكان وأدواته ودلالة «فتح فضاء النص من نافذة دقيقة جدا» (ميلود، 2016، صفحة 219)، انطلاقا من ظهور المكان كشخصية فاعلة رئيسية إلى اعتناق تمظهرات أفكاره من مختلف الفئات الاجتماعية، إنهم يؤمنون بالشيخ ويخلصون له، بل ويسيرون في مراكب إلى مختلف الشخصيات الصوفية التي لها مكان في أفئدة الناس، ومن هنا فقد تراءت شخصية المكان في تقمصه بشكل دقيق ومفصل للأثر المعنوي الذي ألبسه عليه المعنى الصوفي الباحث في أفق المجهول

عن أجوبة لأسئلة مازالت تصاحب الإنسان إلى وقتنا الحاضر. وعليه فإننا نورد بعض الملاحظات والنتائج ضمن ما أنتجته هذه الرواية من فضاءات مختلفة:

- تجسيد فاعل لدور المكان في خلق استمرارية للطقوس التي أنتجها الفاعل الرئيسي وإثبات حضوره بشكل واضح ودقيق.

- تجسيد لدور الشيخ/المجذوب/ الولي الصالح في المجتمع، بحيث نجد أن المجتمع يوليه اهتماما كبيرا وتعظيما بالغا في تسيير شئونه العامة والخاصة.

- الخضوع بشكل واضح لذلك الفضاء وتلك الطقوس والاتكال على قضاء الحوائج من خلالها. ومن ثم استمرارية رأس المال الرمزي بتكريس خصوصية التقديس في هذا الفضاء. وهو ما يحيل إلى قراءة تلك العقلية الخاضعة تماما دون رادع نقدي لما حولها، بحيث تتجاوز أحيانا كثيرة المنطق والمنطق المسالم الذي وإن كان يتخبط في دلالات خاطئة إلا أنه لا يؤذي المجتمع بشكل مباشر، خلافا لمنطق آخر لا يمكن تحريكه من مكانه، ولكن يعمل به العقل الإرهابي الذي لا يمكن أن تحرك ساكنا داخله، بحيث يؤذي المجتمع بشكل مباشر ويؤثر فيه وفي استقراره.

- ناقشت الرواية بشكل ما العديد من الأسئلة التي تتعمق في دور الولي الصالح في المجتمع، وأصالة هذا الدور واستمراريته.

- تقرأ الرواية قراءة واضحة لحدود وآفاق شخصية المكان وهي تتحرك ضمن مسار زمني معين.

- وضوح آليات الهيمنة حسب البنيوية الوظيفية باعتبارها نسقا واحدا وكل جزء منه يتأثر بالآخر، ففضاء شخصية المكان (الشيخ/البيت) في الرواية جزء منسجم مع النسق العام للطريقة الصوفية التي أنتجت أجزاء متعددة في حالة توازن مستمر، بداية من أبعاد الخوف، ثم التقديس، ثم التفاعل.

- قائمة المراجع:

بيير بورديو. (2016). الرمز والسلطة. المغرب: دار توبقال.

حميدة ميلود. (2016). المؤشرات السيميائية لتحوّلات الشخصية القصصية قصة "انتقام" لعبد القادر حميدة أنموذجا. مجلة سيميائيات، 12(01)، الصفحات 218-228.

حميدة ,م .(2016) .المؤشرات .المغرب :دار توبقال.

عبد القادر حميدة. (16 06, 2020). الهوية الثقافية للمجذوب في المجتمع المحلي من خلال تمثلات المريدين فضاء الشيخ عبد الرحمن النعاس بمدينة الجلفة أنموذجا. مجلة دراسات إنسانية وإجتماعية، الصفحات 389-399.

عبد القادر حميدة. (2020). حوش النعاس. الجزائر: دار خيال للنشر والترجمة.

فيصل دراج. (1999). نظرية الرواية والرواية العربية. المغرب: المركز الثقافي العربي.

ليشته جون. (2008). خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة. (فاتن بستاني، المترجمون) لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

متى. (د ت). إنجيل متى. القاهرة: جي سي سنتر.

Béhagle, R. (2016). Maurice Godelier, L'imaginé, l'imaginaire et le symbolique. Consulté le 05 15, 2021, sur open edition journals: https://journals.openedition.org/lectures/19967

Jean, P. (1961). La linguistique. Paris: Presses Universitaires de Paris.